التأثير على الرجل بما ذكرنا من اللين والرفق . والله الهادي الى طريق السداد وحسن الخلق

بعض اداب

يتوهم الانسان منا انه اذا حسنت ملابسه وغلت بزّته وسمت رتبته انه قد صار انساناً متمدناً حقيقياً ويظن انه اذا كثر ماله وعلت وظيفته والتف عليه الناس يمجدونه ويعظمونه انه قد حاز حقيقة الشرف واحتوى على امد العلاء

ونعم ان هذه الاوصاف التي ذكرناها انما هي من مكملات التمدن وموجبات الفضل للانسان لان المرء لا يكون قد حاز ما ذكرنا من جمال النعوت الا بعد ان بذل لها ما بذل من خزائن النفس وتحمل من اجلها ما تحمل من مغالبة العواطف ولكن التمدن الحقيقي واسع الاطراف دقيق الشروط وله فضائل كثيرة لا يزال اكثرها محجوباً عنا نحن معاشر المتمدنين الشرقيين او المقلدين لحقيقة التمدن الغربي بل لا يزال اكثرها محجوباً عن الغربيين انفسهم ولو كانوا هم اول من بعث الينا بهذه المدنية وذلك لان التمدن الحقيقي من ادق غرائز النفس وقد يكون موجوداً في نفس البدوي الفقير ولا يكون في نفس الحضري الخطير

ونحن لا نعقد هذا الفصل لنذكر به كل شرائط التمدن فانما نحن كغيرنا

لا نعيها ولا نجري عليها جميعها بل اذا امكننا بسطها فمن العبث ان نكلف كل نفس الجري عليها لان التمدن الحقيقي انما هو الكمال المحض وذلك لله وحده تعالى ولكننا نذكر منه ما يجمل ان يتحلى به الانسان المريد للتمدن والجاري في حلبته حتى تكون اخلاقه موافقة في الحسن لجودة ملابسه وكثرة ماله ملائمة لعلمه ومبلغ عقله وهو ما لا يحتاج معه الا الى التذكير وقد طالما نفعت الذكرى

فمما ينساه المتمدنون عندنا صدق الوعد وهو من اجل فضائل النفس واكثرها وجوباً للمدنية لان كل شيء يندرج طي الصدق هو الفضل المحض لدى الحقيقة والاخلاف فيه معدود من اكبر النقائص مهما كان صاحبه متسماً بالعلم متحلياً بالمعرفة وانت كثيراً ما تعاشر الرجل السري الغني وتلقى المتمدن العالم فتفتتن بحسن حديثه وادب عشرته وجمال طريقته وسداد رأيه حتى تظن انه قد امتلك الكمال وانه ليس فيه لو ولا ليت فتنقصه ولكنه لا يخلو معك في اثناء عشرته وحديثه او ارادة تلطفه وبيان ذوقه لك انه يعدك ان يلقاك غداً او يهيئ لك ما قد التمسته منه فتنصرف عنه وانت ناعم الضمير مستريح البال تظن ان ما سيكون قد انقضى وان ما سيجيء قد صار في حكم ما مضى ولكنك لا تلبث حين يجيء ميعاد الوعد حتى يختلف ظنك في الواعد كل الاختلاف وينقص لديك قدره ومبلغ همته مع انه ليس في الحقيقة كذلك اذ هو لم يخلف وعده الا لما تغلب عليه من عادة النسيان او لما فاته من مدنية هذا الصدق الذي يعتده ليس بالشيء الخطير ولكنه عند الاعتبار وتقدير النتائج من ادق الحالات واجلها اذ قد يترتب عليه ضرر كبير لم يكن الواعد قد درى حده ولكن الموعود يكون قد بني عليه ما بني

من الامال ثم تعثر بعد ذلك آماله وعثرات الامال ليست بسهلة . وعدا هذا فان اخلاف الوعد بين المتمدنين قد فشا كثيراً حتى صار الواعد اذا وعد موقناً ان الموعود لا يصدقه وصار الموعود واثقاً بان كل ما يوعد به ليس بصادق ولا يخفى ما في هذه الحالة من اضعاف الثقة في النفوس وابلاغ الحذر الى ابعد مداه

ومما نشير اليه في هذا الباب ايضاً مسألة الاجابة على الكتب فانها قد وصلت الى حد لو اعتبرنا نفوسنا فيه لرأينا اننا احط الناس منزلة واشدهم بعداً عن المدنية فانت تكتب لفلان تسأله في شأن او ترجوه امراً لا خسارة له منه بالاطلاق ويكون الجواب عليه شافياً لنفسك مريحاً لضميرك ثم يطول عليك المدى وانت تنتظر دون ان يردك منه حرف وفي ذلك من قلة الذوق والادب ما فيه اذ هو قد منع عنك النفع فيما لا يضره بشيء سوى تكليف خاطره الكريم كتابة سطرين ثم خالف آداب الاجتماع من وجوب رد كل سؤال كيف كان الجواب عليه وهذا الشان منكور جداً عند رجال الغرب وهو معدود لديهم من اقبح العيوب وقد طالما رأينا عظماءهم يجيبون من يراسلونهم من نفس بلادنا النائية عنهم على شؤون لا تهمهم بالاطلاق ولكنهم يدركون انها ولا شك تهم صاحبها فلذلك لا يمنعون عنه ما يهمه

وقد اخبرنا بالامس احد تلامذة اللغة الانكليزية انه اشكل عليه لفظ كلمة بتلك اللغة فارسل وهو بالاسكندرية يسأل عنها جمعية العلماء (الاكادمي) باميركا فورده الجواب عنها سريعاً حتى عرف الحقيقة وطابت نفسه مع انه لو ارسل كتابه الى عالم بنفس الاسكندرية يسأله مثل ذلك السؤال لطوى

السؤال او لمزقه وقال هذا لا يفيدني او لا يعنيني او فلان لا اعرفه فلا اجيبه وانما بمثل هذه الحالات تعلو اقدار الناس وتسقط وبها تتبين حقيقة التمدن وادب النفس والضمير

ومن الحالات التي يحسن التنبه اليها الانكار على الناس بعض عاداتهم التي الفوها في بلادهم مع انه ليس فيها شيء من الضرر لا للمنكرة عليه ولا للمنكر لها فانت تدعو الى مائدتك مثلاً احد رجال الريف العربيين وانت تكون قد جريت على السنن الاوربي والطريقة الغربية ويكون الرجل نظيف اللباس ولو كان شكله غير شكل لباسك وافر الادب في حديثه كثير الجاه في ماله فتنكر عليه انه لا يعرف طريقتك وانه غير متمدن لانه لا يدري شرائط الموائد الاوربية مع ان ذلك غير مهم بالاطلاق لدى حقيقة المدنية وقد يكون لهذا الرجل شرائط لمائدته لا تدريها انت فتصبح واياه سواء بل ان شروطك واداب مائدتك ليس في تعلمها كبير عناء ولا هي مما تقطع عليه الاعمار وتتحمل من اجله الاسفار ولكنه قد يكون محرزاً من آداب نفسه وعقله ما لا يمكنك احرازه في سنين

وعلى الجملة فان هذه الحالات كثيرة جداً لا نعيها كلها كما قلنا ولا يتسع لبعضها هذا المقام ولكننا اوردنا ما ورد كنموذج او دلالة لسائرها فلعل ادباءنا المتمدنين يجرون عليها فانه لا ينقصهم منها الا الانتباه الدائم اليها وبذلك يكمل تمدنهم وتجمل طريقتهم وتكون محاسنهم ملائماً بعضها لبعض في السلامة بعيدة عن الانتقاد بريئة من الملامة